الانوار

الخميس ٢٢ تشرين الأول ١٩٩٢

قضايا ثقافية

القسوة ام الاهمال؟

الانسان مخلوق قلما يعجبه شيء... او قل انه يختار عدة اشياء ودائما تراه يفتش عن كل ما هو سهل، لا يكلفه عناء... عذاب او ألم. انطلاقا من انه يعرف... وقد وصل وقد ذاق الامرين وعند السؤال، تراه كأنه غريب، عن هذه الدنيا والكرة الارضية. يلجأ الانسان الى خالقه عند الشدة فقط!

عندما تقسو عليه الظروف... والايام... هنا يعمد الى وضع اللوم على خالقه بقوله «من الله»...

بينما ساعة يكون فرحا لا يفكر بخالقه والسماء. فقط عند الحاجة تراه يقسو على الله بطلباته... يحكمه وحسب رغبته دون ادنى تغير منه او تحول.

لنفرض ان النهاية قد قربت، وحددت بمائة يوم.. سوف تقوم القيامة وتأتي النهاية... هنا ماذا يحصل؟

صدقوني سوف تمر التسعة والتسعين يوما دون وعي منا... حيث ان الجسد يبقى هو السيد... من حيث النزوات، والهندام والمأكل والمشرب... الخ وعند اقتراب اليوم الاخير....! نصحو ونبدأ بالصلاة... والتضرع ليأتينا منقذ....!

طبعا هذا لن يحدث، لان من خلقنا يعرف كيف يحبنا وكيف تكون قسوته علينا... من خلال تجارب نحن من يقع فيها.. لكن الخالق لا يهملنا.

الارض لا تخلو من الحكماء والقيمين على المد البشري وتطوره. فان اولئك يقدمون لنا قسوة من خلال الصدق ـ الوفاء ـ والاخلاص.

الصادق مع نفسه ومع الاخرين يكون قاسيا... بايجابية اليس الذي يحكم بصدقه امام مجرم او كاذب قسوة؟ في الوفاء قسوة... فحارس الدار او صاحب المبدأ او المكلف بامانة الا يكون قاسيا مع فوضوي مخرب. دون ان يهمل مسؤوليته!

في الاخلاص قسوة.. فوقفة قاسية امام تجربة تجرك الى الاثم او سلبية هي قمة الاخلاص... كم يقسو المخلص على نفسه من اجل حبيبته... فلا يقتنص الفرص وينتقل الى الخيانة، لان الخيانة نقيض الاخلاص...

وهل يهمل العاشق حبيبته؟

في الضمير قساوة... الضمير قاس... لكن على صاحبه فقط...

من اجل ترويض النفس على الخير... وهذه ميزة انسانية روحية خالصة.

تصور حفرة كبيرة وقعت فيها! انها اقسى ما يكون! لكن رغم عمق الحفرة... اليست الحفرة الكبيرة للشجرة الكبيرة؟ فكما الشجرة تطلق وتبعث بجذورها في التربة القاسية وتتمسك جيدا لتعلو... ترتفع... تشمخ. فالحفرة تجربة قاسية يمر بها المرء. عليه ان يقاومها ولا يهمل اية رسالة تكون درسا له وهدفا لغيره. فهل تهمل نفسك اذا وقعت...؟

كم هو قاس ذلك الطبيب الجراح.. يشارك في مبضعه مكانا ما في جسدك.. قساوة من اجل صحة جيدة.

ماذا يحدث لو اهملك...؟

قساوة المدرب... اليست من اجل ايصالك الى المكان الاول والنجاح هو العبرة من كل قسوة.

القسوة في مناقبية العسكر... الا تكون مسؤولية الزامية وطنية... تعلمنا ان لا نهمل القانون. والعدل والحق. كم هي قاسية نبرات ونظرات المعلم في صفه!، وكم يستاء الطلاب الكسالى الخمولين من ثورة غضبه... اذا تأخر طالب في الاستيعاب او في تقديم موضوع!...

من منا يريد من استاذه ان يهمله؟

القسوة نشاط فكري حاد يجعل من المفكرين والمبدعين قساة على ذواتهم من اجل ايصال فكرتهم.. اختراعهم او اكتشافاتهم فلو اهمل الفكر كل ما توصل اليه الانسان؟ لكان الخمول هو السائد وبطيء في مسار الوجود.

القسوة هي سر العطاء الكبير!

كم هي معطاء الام.. اليست قاسية في بادىء الامر؟ من منا لم تسجنه أمه في رحمها تسعة اشهر او سبعة! مرورا بالحكمة الالهية في قانون الخلق والولادة.

الام قاسية في لا وعيها... لكنها حنون في وعيها... وحاشى للام ان تهمل رضيعها والى اي عمر وصل او وصلت. لنتأمل شجرة في وسط بستان.. البستان هو الحياة والانسان هو الشجرة... عندما زرعت الشجرة ربما عرف المزارع من اين البذار، او لم يعرف؟!

عندما زرعت الشجرة كانت نبتة وكان ينتظرها لتنمو.

حين نمت النبتة بدأت العلاقة تتقدم وتتوسع، في الارض... في الاغصان ومع الثمر... وعندما راح يسقيها في مواسم الري، كان القصد ان تمد جذورها في التربة لتكون صلبة في سبيل البقاء ومبدأ الطبيعة... وكان هذا هو الحافز...

كان له معها زيارات: في الشتاء، في الربيع.... في الصيف... في الخريف.

في الشتاء كان يتفقدها مراقبا... في الربيع كان يدفع عنها اخطارا عدة في الصيف كان يعطي من ثمارها الى اخوته وايضا يتظلل في فيئها. اما في الخريف فهل كان يقسو عليها؟

في هذا الفصل كان يصطحب المنجل والفأس وكان يشذبها خير تشذيب. في كل ضربة منجل كانت تدمع.. حيث يمر بحدته. وفي اطلالة الفأس كانت تصرخ... المزارع يبتسم ويتقدم الى عمقها رويدا رويدا بعد ان يزيل من امامه العراقيل الممتدة منها. انتهى هذا القاسي... رجع الى الوراء... نظر اليها نظرة عاشق نظرة رسام نحات وكأنه صنع تمثالا سوف تنبعث منه غدا احلى واجمل الدرر والحلي. وردد بصمت «في التشحيل قوة». لقد كان قاسيا! الستم معي؟ اما اذا اهملها هذا القاسي فماذا يحدث...؟

هو لن يعود لحراثة التربة... ولا لنزع الاعشاب الدخيلة... هو لن يعود في موسم الري... وهي سوف تحاول ان تستمد من قوتها الذاتية كل مصدر قوة لتبقى خضراء يافعة.. لكن الى متى؟

... وها هو رتل من الاشواك والعوسج يزحف الى المكان بعد ان غاب الحارس! يزحف ويمد يده «الاخطبوطة»... يطوقها... يقلقها بوخزه... يمتص ما فيها من حياة ورطوبة... يتسرب الى جذورها ويشاركها المكان والاقامة. وتبدأ المعاناة والالم. هي لا تدري لماذا؟ لكنها لا تطلب المساعدة كونها تعتبر انها ذكية عارفة... معتبرة أن العملقة لها. الاشواك تنمو وتعلو. الشجرة تجف وتتقلص الاشواك لا تنذر ابدا... بل هي تحتل المكان وتسيطر، حتى مجيء الحطاب ليبدأ عمله من جديد... من اجل قساوة فصل بارد.

ويبقى الجواب هو الذي يدفع السؤال.

وتبقى القسوة هي المعيار لكل منهج سليم حكيم..

والويل لمن يكون نصيبه الاهمال!

فالخوف من الاهمال. يزعج الكيان البشري... جسديا... فكريا.. نفسيا. ولكن ليس روحيا. فالروح في الانسان لا تتأثر بمعطيات بشرية لانها نوعية الهية.

ايلى ابو سمره